# الجوع والضمير والليل ...

قصة بقلم احمد سويد

- ١ -

دقت الساعة واحدة بعد منتصف الليل ، وما زلت اتسكع . ونامت افكاري الهزيلة كلها في كهوف رأسي ، وكادت اطرافي تنام معها ، وظل جوعي وحده هو اليقظان .

اني احسه يتمطى في احشائي حتى ليكاد يمزقها . يصرخ ، يتململ ، يجدف على الله ، يجرني من اذني ويطوف بي الشوارع النائية المظلمة ، بحثا عن امل مجهول ، عن لقمة ضائعة ، لا اعرف اين اجدها .

.. وفي تلك الساعة لم اكن ادري اين انا ، حين امسكني من رقبتي - اقصد جوعي - وصلبني تحت مجموعة من الانوار الملونة المتراقصة .

... وبحركة بلهاء رفعت بصري الى اللافتة بعد جمود طويل .

اللافتة تقول : اني امام « النار الخابية » ... فأين تقع « النار الخابية » يا الفونس ؟ تذكر اين تقع « النار الخابية » ؟

.... واستنجدت بمعلوماتي كمتشرد مزمن ، فراحت هذه المعلومات تتداعى ببطء الى رأسيء .

- انها حانة يا عزيزي الفونس ؟ الا تشم انفاسها التي تتناهى اليك كلما شق الباب الصغير ، واندلق منه الدفء ورائحة الكحول الحادة ، وقهقهات بعض السكارى ؟

- اعرف انها حانة ... ولكن اين تقع هذه الحانة ؟

- يا ابله ... انك تمر بها عشرات المرات في النهار الواحد ، وتكاد تدخلها كل ليلة . الا تعرف الحي الذي يقوم فيه جحرك الصغير ؟ الا تعرف حي الغرباء في الطرف الشرقي من باريس ؟

- اوه .. حقا اني ابله .. ولكن ما ذنبي ، اذا كان راسي قد اصبح وطنا اصيلا للشرود والضياع ، والضباب ؟

.. ودفعت الباب برجلي ودخلت ..

وتلقاني سيمون صاحب الحانة بنظراته التي تعود ان يلقاني بها ، اي بكوكتيل عجيب من نظرات اللعنة المهموسة ، والعطف المتردد ، والتعنيف الخفيف .

وفهمت من هذا الكوكتيل كما تعودت ان افهم ، ان المعلم سيمون ، او الكرش المدور ، كما اسميه في سري ، لا يمانع في ان اجلس الى احدى الموائد المهجورة في احدى زوايا حانته ، وانه يعدني - كما تعود - بالشمالات التي يتركها بعض الزبائن في كؤوسهم حين ينصرفون ، شريطة ان اتحلى بصبر ايوب وهدوء البومة المحنطة .

.... ومن زاويتي رحت انقل طرفي الجائع الظامىء من مائدة الى مائدة ، وكنت كلما ارتفع كأس الى شفة ودنا منها ، تمرغت نظراتي على اليد التي تحمله ، وتوسلت اليها :

- بحق ابليس ... اتركي لي جرعة .

وقليلا ما كان داء السخاء يصيب رواد الحانة الظماء دائما حتى الى الشمالات .

- ٢ -

وفي الزاوية المقابلة كانوا ثلاثة . ملامحهم تشي بهم وتهمس بانهم من هناك ، من الارض العنيدة التي تلاحقني لعنتها ، ويغرقها قومي بالدم والليل والمأساة .

لكم اكره هذه الملامح ، اكرهها بضراوة واحقد عليها ، فبسببها تنكرت لي فرنسا ، دون ان يكون لي من ذنب سوى ان امي الشقراء الفرنسية ، اشتهت السمرة المحروقة في فورة من فورات جسدها ... فكان ابي المجهول جزائريا محروق السمرة .

.... وعبثا حاولت الفرار من اللعنة السمراء . لقد ظلت ابدا في وجهي ، في جبيني ، في دمي .

لاحقتني في طفولتي ، يوم كان اترابي يسمونني « الهجين » ، فاهرع الى التي جنت علي ، اشكو وابكي ، فتمسح دموعي بشفتيها ، وتهمس في اذني :

- هون عليك يا حبيبي، فستتهافت عليك امهاتهم واخواتهم عندما تكبر.

ولاحقتني يوم كنت هناك في الجزائر ، فطردت من الجيش ، وسجنت وتعرضت لتعذيب فرقة المظلات ، لان القيادة شكت بولائي للوطن الام ، واتهمتني بأني انقل الاسرار العسكرية للعدو .

وها هي تلاحقني هنا ، فتحرمني من العثور على عمل ، لان فرنسا اصبحت منهارة الاعصاب ، تعاني عقدة رهيبة اسمها « عقدة الجزائر » فكل اسمر وان كان فرنسيا ، معرض في نظرها ، للتعاطف مع الثوار ، وللتعاون مع خلاياهم السرية التي تنشط في كل مكان من التراب الفرنسي ، حتى في قلب باريس .

... ولمع في ذهني الغائم المكدود ، وانا قابع في الظلمة ، خاطر شرير:

- لم لا اراقب هؤلاء الثلاثة الغارقين في حديث جدي مهموس يلهيهم عن كؤوسهم الطافحة بالنبيذ الرخيص ؟

لم لا اراقبهم ؟ فقد اكتشف فيهم عناصر خلية سرية مخربة ، وقد يبيض هذا الاكتشاف وجهي وصفحة سلوكي في نظر السلطات ، ويملأ جيبي الخاوي بما يسد الرمق على الاقل .

... واعجبتني الفكرة ، فنشرت اذني على مداهما ، وحشدت فيهما حواسي كلها ، بل كل ما ابقى لي خدر الجوع من هذه الحواس .

وجهدت كثيرا لالتقاط شيء من اصداء همسهم ، ولكني فشلت في ذلك ، ونجحت في امر واحد ، هو انني لاحظت امامهم ورقة مبسوطة يحدقون بها بامعان ، وينقلون اصابعهم عليها ، فرحت اقدر انها ربما كانت خريطة ، انهم ربما كانوا يعدون في هذه الساعة المتأخرة من الليل، خطة ما ، لحدث خطير من احداث النهار .

وعندما نهضوا ليغادروا الحانة سمعت اكبرهم سنا ، وهو شاب اشيب الصدغين ، يبدو الدهاء في عينيه ، سمعته يقول لرفيقه وهو يودعهما :

- الى اللقاء .

وخيل الي ان ملامحه المعبرة تكاد تكمل .

ـ واتمنى لكما النجاح في المهمة :

ـ ٣ ـ

شكرا لسيمون : لقد كان سخيا هذه الليلة فأغدق علي من الثمالات ما يكفي لتخدير ثور .... ومع ذلك فقد قضيت بقية ليلي ، متوتر الاعصاب مصلوب الاجفان .

ولم يكن الجوع وحده سبب ارقي ، بل كان سببه ايضا مالاك خاطري في يقظته القلقة من احـــلام ! :

ـ سيدي الكولونيل . اقدم لك نفسي . اني ادعى الفونس . الفونس ... ماذا ؟

... واحس بالحرج والضيق فاتململ واتصبب عرقا ولكنني لا البث ان اجد المخـرج :

ـ اسم ابي لا يهم ... بل المهم ان تثقوا بي يا سيدي الكولونيل وان تستفيدوا من مواهبي ... ولوني .

. . وينظر الي الكولونيل نظرة فاحصة ، فأغمزه بجرأة عجيبة ؟

ـ ان حوادث اغتيال الزعماء الجزائريين الموالين لفرنسا ، تهـز عاصمتنا وتلقي في اوصالها الرعب ..

.... وتتسع حدقتا الكولونيل ويسألني بلهفة :

ـ اتعني انك قد تكون مفيدا لنا في الكشف عن بعض الاسرار .. ؟

ـ ربما يا سيدي .. ولكن ....

ويفهم الكولونيل ما اعني ، ويهز براسه موافقا على الصفقة .

... ويكر الشريط ، وارى نفسي على ضفاف السين : القمر يتلصص على الناس من فجوات الغيوم الخريفية ، وانا في ابهى زينتي ، وجاكلين تتعلق بذراعي كالطفلة ، وتشدني بنشوة كأنها تريد ان تنيخ الجبـل الشاهق الى الارض :

ـ يا قاسي القلب ، يا بقية العصر الحجري .. تهجرني سنة كاملة ولا تسأل عني ؟

واضمها الى صدري بحرارة :

ـ لقد كنت اشعر اني لست كفؤا لك، لانني كنت بلا عمل.. اما الان..

ولا تمهلني جاكلين حتى اكمل ، بل تقفز الى شفتي المستسلمـين تلتهمهما بضراوة .

... ويكر الشـريط واري نفســي في « الطاحونة الحمـراء » ، وفرنسواز الى جانبي ، وكأسانا يتوهجان بالذهب السائل . لقد طال ظمأي اليهما : الى الربيع في عيني فرنسواز ، والى الويسكي ، ذلـك الرحيق الالهي الذي تعبه عيناي كل ليلة .. ولكن فمي يتشهاه .

... وفي غمضة عين ، ينقلني حلم اليقظة الى حلبة رقص لا ادري مكانها ، ها انذا ارقص مع جيزيل ... نرقص بجنون حتى ليخيل الينـا ان خطانا لا تمس الارض ، واننا قد تحولنا معه الى كائنين اثيريين ، ولا يحس لهما وزن ،ولاتحيط بهما عين .

.... ويكر الشريط ، وارى نفسي وراء المقود ، اتهادى بسيارتـي الانيقة في شوارع باريس ، باحثا عن متعة لم اتذوقها بعد ، ونكهة جديدة لصيد جديد .

... ويقطع الفجر والصقيع علي ، احلام يقظتي ، فافتح عيني لاجـد نفسي في جحري الصغير ، الكريه ، الخاوي من كل شيء حتى من الدفء، والامل ، فاهرب من واقعي البائس الى الشوارع المغلفة بالجليد ، اجتازها بما يشبه العدو ، عل الخطى السريعة المتوترة تبعث دمي الهاجع ،وتشحن اعصابي الباردة بدفعة من الحرارة ، ولكن اكشاك الصحف تستوقفني ، عند كل منعطف ، لابحلق ، دون ان ادري الدافع ، بتلك العناوين الضخمة المثيرة التي تتصدر الصفحات الاولى من صحف الصباح.

« اغتيال بن قدور عند قوس النصر »

« العصاة الجزائريون يروعون باريس »

« الارهابيون الجزائريون يصرعون اوفى صديق لفرنسا » .. واقهقه في سري كالابله ، ثم الوك لساني الكسول :

ـ يا للسخرية .... يهزأون بفرنسا ويهزقون هيبتها ... فيقتلون اصدقاءها في عاصمتها ، وتحت قوس نصرها .

... واقلب شفتي بحركة كأنها الشماتة ، واتابع سيري الهستيري ، والملامح السمراء التي راقبتها في « النار الخابية » ليلة البارحة تنـط الى وعيي متتابعة متلاحقة ، وقد قنعتها الريبة لتستوقفني بعد قليل ، عند ناحية الشارع وتجمدني ، كمن وجد شيئا ضائعا انهك نفسه في البحث عنه :

ـ لقد وجدتها. لا شك انهم هم،الذين صرعوا بن قدور. ملامحهم الحذرة المتزمتة ، وهمسهم الريب المتواصل ، والخريطة المبسوطة تحت اعينهم . كلها ادلة جرمية ، او على الاقل شبهات تجيز لي ان اتهمهم ، ان امسك بتلابيبهم باسم القانون ، باسم العدالة الفرنسية ... ان اسوقهم الـى كولونيل ... اي كولونيل . وانحني امامه ببسمة الفخور :

ـ اقدم لك يا سيدي هذه الهدية المتواضعة ، ثلاثة من افراد العصابة الارهابية التي تقض مضاجعكم ...

.. ويربت الكولونيل على كتفي ، ويعدني بوسام رفيع ، ويأمـر بـان يجزل لي العطاء فأخرج من بين يديه ، منتفخ الصدر ، وفي جيبي ثـمن مناسب ، لرؤوس ثلاثة قد تستريح العدالة الفرنسية من غمها الخانق ، حين تسلمها غدا الى قبضة الجلاد :

.. . وابتسم بزهو « للمهمة » السعيدة التي ستجعلني انتصر عمـا قريب على الفاقة والتشرد والحرمان .

ـ ٤ ـ

الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، والحانة تكاد تخلو من الرواد ، الا بقايا حلقات تتناثر في الزوايا الخافتة الضوء الملبدة بضباب الدخان واصداء القهقهات .

... والثلاثة في زاويتهم . كؤوسهم المترعة بالنبيذ الرخيص ما زالت تتشاءب بضجر وخمول . وهم غارقون في نقاش مهموس تنقبض له عضلات وجوههم حينا ، وحينا تنبسط .

لقد استطعت هذه الليلة ان اكتشف اسماءهم . نجحت اذنـاي المشرعتان في التقاطها رغم حذرهم ، والرقابة الشديدة التي فرضوهـا على همساتهـم .

ان كبيرهم الاشيب الصدغين يدعى « عباس » . سمته وغموضـه وسلطانه على زميليه دلالات ترجح انه « الزعيم » .

والثاني يدعى « بن خضير » وهو فتى في الخامسة والعشريـن ، لـه شارب اسود انيق كجناح سنونوة ، وعينان نفاذتان يخيل اليك حـين تقعان عليك ـ عرضا ـ انهما تخترقان عظمك ولحمك ودمك ، وتشيعان فيك مزيجا من الرعب ، والتهيب ، والاعجاب بالفتوة .

اما ثالثهم ... فيدعونه في تهامسهم « بلقاسم » . وهو افطس الانف قليلا حذر النظرات كالحداة ، تتحرك كل عضلة فيه حين يتحرك لسانه ، وتكاد الحيوية تتدفق من اطرافه باحثة عن مسيل .

ان « بلقاسم » على ما يبدو لي هو اداة التنفيذ ، وعباس عقلها المخطط ، وبن خضير ـ برج المراقبة الذي يحدد للاداة لحظة الصفر .

ـ هي تقديرات يا الفونس ، اوحتها لك مظاهرهم ، فجرب ان تكتشف الحقيقة وراء هذه المظاهر . حاول ان تخرج السلحفاة من درعها العظمي.

... وتصنعت النعاس ، وارسلت دفعة من الشخير ، تكفي لاقناع جيراني بامكانية التحرر الجزئي من حذرهم ، ونجحت الخطة ، بعد دقائق ، فاذا بابن خضير يخرج من جيبه احدى صحف الصباح ، وينشرها على المائدة ، ثم تتداني الرؤوس الثلاثة ، ويتخافت الهمس ، وتحوم الاصابع فوق صورة تتصدر الصحيفة .

اني اعرف جيدا هذه الصورة . لقد وقفت امامها في الصباح وتأملتها ... وتأملت مخطط الجريمة ، وكيف وثب المجهولون على سيارة « بن قدور » وافرغوا في الصدر المسكين ثلاث رصاصات فقط ، وكيف سال دمه بعد ذلك ، في خط طويل متعرج تحت قوس النصر :

.. واذن .. لقد كانت شكوكي في محلها ، وصح حدسي ، فانا امام خلية ناشطة من خلايا الارهابيين الذين هددوا يوما بنقل الحرب من بلادهم الى ارض فرنسا ، خلية تستغل جو العربدة ، وضياع السكارى في الحانة ، لتضع في هذا الجو خططها ، وعلى مرأى من شهود ثلاثة صم بكم ، مترعة بالنبيذ الرخيص

ما اشهى هذه الرقاب السمراء الغليظة معلقة على اعواد النقمة .

وما اشهاها وهي في قبضة العدالة ، تشدها هذه القبضة فتنوس فيها الحياة شيئا فشيئا ، ثم تنطفىء بعد دهر طويل من العذاب المر .

بل ما اشهاها الان مربوطة بخيط غير مرئي تعبث به اصابعي ، خيط يجر ، « الثمار اليانعة » الى مصيرها العادل ، ويجر ثمنها الى جيبي .. جيبي انا الشريد المتسكع الباحث بلا امل عن رغيف شريف .

...ووثبت من زاويتي ، وفي راسي مخطط واضح لاقرب طريق ، يستطيع ان يضعني امام اقرب مركز من مراكز البوليس .

ـ ٥ ـ

بيني وبين مركز البوليس منعطف شارع .

ان بضع عشرات من الخطى هي كل ما يفصلني عنه من مدى ، ولكن خطوي النزق المفذ ، يتثاقل فجأة ، وسيلا من السياط اللاسعة المجنونة ينهال على صدري ، ويكاد يصدني ، صاغرا ، الى الوراء .

ـ الى اين يا هذا ؟

ـ ارجوك اني ادعى الفونس

ـ كلا ... انك واهم . فانت « شيء » .. اتسمعني ؟ انت « شيء» حقير قذر اسمه جاسوس .

ـ ولكني فرنسي ، وولائي لفرنسا يفرض على العمل في سبيلها .

ـ ان ولاءك كانسان يجب ان يكون للحرية وللانسان ، ولا ولاء عليك لوطن ينصب نفسه عدوا لكليهما :

ـ يا للفظاعة : ومن قال لك هذا ... ان ..

ـ ارجوك . ان اسمي هو الفونس :

ـ ومن قال يا الفونس ان فرنسا هي عدوة الانسان والحرية ؟

ـ اسال الجزائر .

ـ ان فرنسا في الجزائر لا تحارب الحرية ، ولا تمتهن الانسان ولكنها تحارب التمرد ، وتؤدب الخارجين على القانون وتحاول ان تمد فوقهم ظلال المدنية :

ـ اجاد انت فيما تقوله ؟ واذا كنت كذلك فمن الذي اعطى امتك هذه حق الولاية على الشعوب ؟ وهل ان ما كنت تراه هناك من « مآثر» جيوشها ، يمثل بعض مظاهر المدنية التي تريدون ان تفرضوها ؟

ـ . . . . ..

ـ ما بالك تصمت ؟ امن تعاليم مدنيتكم تلك ، احراق الزرع ، وقتل الاطفال والشيوخ ، وتدمير القرى ؟ اهذا هو انجيلكم الذي تبشرون به هناك ؟

ـ ولكنها الحرب يا صاحبي !

ـ وما غاية هذه الحرب في عصر يسفه منطق الغزو ويثور على شرائعه الهمجية ؟

ـ ان فرنسا تحارب لانها تخشى ان تجوع اذا فقدت الجزائر .

ـ ولانها تخشى الجوع ، لا تتورع عن اكل لحوم الجزائريين .. اليس كذلك ؟

ـ ولماذا تقرعني ؟ أانا وحدي المسؤول عن سلوك فرنسا ؟

ـ كل واحد منا مسؤول عن هذا السلوك ، ثم ها انت ذا في الطريق الى البؤرة اللعينة ، الى الحمأ الذي تغرق هي فيه .

ـ ولكني جائع ... ولكني جائع ..

ـ واشباعا لجوعك تريد ان تنهش لحم عباس ، وبن خضير ، وبلقاسم ؟

ـ ولكنهم قتلة ارهابيون .

ـ انهم عدالة الشعب ، يكافئون بالقتل من يقتل شعبا بكامله .

ـ اترضى ان يمتهنوا كرامة فرنسا في قلب عاصمتها ؟

ـ اترضى انت ان تمتهن فرنسا كرامتهم كبشر في قلب بلادهم ؟

ـ لكم انت متعصب لهم .... فلكأنك واحد منهم .

ـ انا اتعصب للحق ، لذلك لا تستغرب اذا ما رأيتني في صف المدافعين عنه .

ـ ودمك ... يبدو انه فسيلة من دمهم ؟

ـ نحن اخوة في الحرية ، واكاد اقول ... وفي الدم ايضا ؟

ـ يا خبيث .. لماذا تريد احراجي ؟

ـ ما ذنبي في ذلك ، وقد احرجتك امك من قبل حين اشتهت ، ثم احرجك ضميرك بعد ذلك وما يزال .

ـ ولكني اكرههم واحقد عليهم فصدقني ... اكرههم واحقد عليهم ،

ـ تلك قشرة على سطح شعورك .. بسطها الاضطهاد .. ليغطي بها حقيقتك !

ـ اذا .. فانا احبهم دون ان ادري ؟

ـ اجل ....

ـ حسنا ... اما زلت في نظرك ذلك « الشيء » القذر الحقير الذي اسمه « جاسوس » ؟

ـ كلا .. فانت الان الفونس : عد يا الفونس ... ان الجوع والتشرد والحرمان .. اخف وطأة على الضمير من ان تطعن في الظهر انسانا ينشد الحرية .

✶

... وعدت ادراجي لاقف تحت الاضواء الملونة امام الحانة ، فاسند ظهري المتعب الى الجدار البارد ، وارنو ، بمحبة ، الى الثالوث الاسمر وهم يغادرون غار الليل العابق بالدفء ... وضباب الاحلام ، وانفاس السكارى .

وهوذا عباس بقامته المديدة ، ووجهه الصارم يقف على العتبة ليهمس في اذن رفيقيه كالعادة :

ـ الى اللقاء ...

فتكمل ملامحه العبرة ولا اتمالك نفسي فاكمل معه :

واتمنى لكما النجاح في المهمة ..

بيروت

**احمد سويد**